ولكن التطور الاقتصادي للمجتمع من الاقطاع الى الراسمالية جعل من القهال شكلا « اقطاعيا » طفيليا لا مضمون له يقوم باستغلال اليهود لحساب الحكومة البولندية والنبلاء الاقطاعيين الغائبين في المدينة (٢) . ومن مظاهر هذه الطفيلية الاستغلالية ان وظيفة رئيس القهال لم يكن يشغلها الا من كان على علاقة طيبة بالحكومة او بالنبلاء ، حيث انها كانت تعد مصدرا للدخل المرتفع لمن يشغلها (٣) . ونفس الطفيلية تتضح في وظائف القضاء التي كان لا يشغلها الا من يدفع رشوة للحكومة ، ولذا كان من الطبيعي ان يتقبل القاضي الهدايا والرشاوي فور تعيينه (٤) . وقد نتج عن هذا ان كبار موظفي القهال اصبحوا طبقة مسيطرة احكمت قبضتها وهيمنتها على اليهود وفقدت كل علاقة بالجماهير خاصة وان يهود الريف لم يكن من حقهم ان يدلوا باصواتهم على الرغم من انهم كانوا يدفعون الضرائب المقررة عليهم (٥) .

وقد بلغت طفيلية القهال درجة كبيرة حتى ان الحكومة البولندية ذاتها الغت مجلس الاراضي الاربع (الاطار الاداري الذي يضم كل قهالات بولندا وليتوانيا) كما انها اخذت في تقليل سلطة الحاخامات (٦) . وقد صاحب هذا التطور الاقتصادي والسياسي تحسن في احوال الطبقة المتوسطة الكبيرة (تجار الجملة) ، اما يهود المناطق الريفية فقد ازدادوا فقرا خاصة بعد زيادة ضريبة الرؤوس (٧) . فقد عاش البقالون واصحاب الدكاكين الصغيرة والباعة المتجولون واصحاب الحانات وجباة الضرائب (وهم من صغار الموظفين) واصحاب الفنادق الصغيرة وصغار المستأجرين من اليهود (٨) حياة قاسية للغاية ، اذ فقدت هذه الفئات الاجتماعية المرتبطة بالنظام الاقطاعي الاساس الاقتصادي لوجودها حتى ان بعضهم كان يكسب قوته (حرفيا) « بمعجزة » في شكل زبون يأتي بالصدفة (٩) . وكانوا يتضورون جوعا حينما لا ترسل لهم الصدفة هذا الزبون ، مما كان يضطرهم ان يقتاتوا بما يتكرم به النبيل البولندي عليهم (١٠) (وظاهرة الشحاذ اليهودي ظاهرة كانت واسعة الانتشار في اوروبا في اواخر القرن التاسع عشر) . ولقد بلغ بؤس هذه الجماهير الاقتصادي ان عشر ارباب الاسر اليهودية كانوا بلا عمل (١١) . وقد كانت هذه الجماهير هي التي اتحدت لتقف ضد سلطة القهال اداة استغلالها وطالبت بتغييره او حله ، وكانت هي الجماهير التي انضمت للحركة الحسيدية . ومن الملاحظ ان الحرفيين والعمال اليهود لم ينضموا للحركة الحسيدية لاسباب عدة من اهمها ان الاساس الاقتصادي لوجودهم كان اكثر ثباتا من اساس البورجوازيين الصغار من اليهود ، كما انهم كانوا لا يكملون دراستهم الدينية اذ كان ابناؤهم لا يدرسون الا اسفار موسى الخمسة ويتركون بعدها الدراسة لفقرهم ، على عكس اولاد اصحاب الدكاكين الذين كانوا يكملون دراستهم الدينية ويقرأون الجمارة (جزء من التلمود) مما كان يؤهلهم لدراسة القهالة بنزعتها الغيبية (١٢) . هذا وقد امتصت الحركات الثورية العمالية (اليهودية وغير اليهودية) كثيرا من العمال اليهود (١٣) .

ومع ان الجماهير اليهودية كانت ترزح تحت نير الاستغلال الاقتصادي من جانب النبلاء البولنديين وقيادة القهال ، الا ان قيادتها الفكرية والدينية لم تقم هي الاخرى بأي دور روحي او تعليمي او اخلاقي ، فقد تحول الحاخام الى مجرد موظف له راتب ، لم يكن يعنيه شيء من شؤون الجماعة ، وكانت مواعظ الحاخامات كلها تدور حول مواضيع فقهية عويصة مغرقة في الغيبية . بل ان الحاخامات ، شأنهم في هذا شأن بيروقراطية القهال ، كانوا يحصلون على وظائفهم نظير مبلغ من المال يدفعونه . وقد ارتبطت طبقة العلماء اليهود بطبقة الاثرياء عن طريق القرابة والنسب (١٥) وقد لخص احد الفقهاء وضع الحاخامات قائلا « كل شخص به جوع للسلطة وكل شخص يصيح اريد ان احكم (أو اتسلط) لانني عالم (تلمودي) » (١٦) .